د. رون كوزار*

كيف نشأت اللغة العبرية الاسرائيلية؟

نشأة اللغات الحديثة

ما الذي يدفع باحثي اللغة والمهتمين ومستخدمي الثقافة العبرية في إسرائيل للانفعال إلى هذا الحد عندما يدور الحديث عن إعادة إحياء العبرية؟ لماذا يدور جدال منذ خمسين عاماً حول مسألة كيفية إيجاد العبرية الإسرائيلية؟ لا ريب في أن الرد على هذا السؤال اجتماعي – سياسي.

إحياء العبرية مدماك مهم بفكرة إحياء الشعب اليهودي، وفكرة جوهرية في التكوين القومي للجمهور اليهودي الإسرائيلي. ومثلما يُعرض الشعب اليهودي وكأنه عاد ليشكل قومية في موطنه السابق (الأمر الذي لم يوجد في أي فترة سابقة، لأنه لم توجد قومية حديثة في العهود القديمة، ولكلمات "شعب"، "غير يهودي"، "قومية" تعبر عن كيانات جماعية من نوع آخر مختلف كلياً) تعرض اللغة العبرية الإسرائيلي وكأنها العبرية السابقة التي أعادتها للحياة طلائع الحديث العبري. وتنطبق المزاعم القومية الشائكة والحقائق الأكثر تعقيداً، أيضاً على "إحياء العبرية".

أود في هذا المقال بحث الحوار اللغوي والسياسي حول "إحياء العبرية". سيتناول القسم (أ) مسائل نظرية عامة حول نشأة اللغات الحديثة ويعرض القسم (ب) توجهات غير إحيائية في نشأة العبرية الإسرائيلية، وسيتناول القسم (ج) العلاقات السياسية في الجدال حول إحياء العبرية.

من الناحية الشكلية: هل يوجد أسهل من ذلك؟

ماتت اللغة العبرية حوالي ١٨٠٠ عام ومع "إحياء الشعب اليهودي في وطنه" عادت لغته القديمة للحياة، يوجد رغم التوجهات المختلفة والتأكيدات المتباينة في مسار الإحياء التي تعبر عن الإستشراقات

* لغوي في جامعة حيفا في قسم اللغة والآداب الإنجليزية.

لا ريب في أن العبرية مرت في مرحلة أزمة كبيرة عندما توقفت عن كونها لغة أما طوال ١٨٠٠ عاماً. ومن الواضح أيضاً بأنها وعندما عادت لتشكل لغة منطوقة إجتازت مرحلتين: مرحلة جيل الآباء، الذي كانت هذه بالنسبة له لغة مكتسبة وجيل الأبناء التي شكلت لهم لغة طبيعية. ومن الواضح أيضاً أن جيل الآباء تحدث اليديش ولغات أخرى من نفس النموذج اللغوي.

الثقافية –السياسية للمتحدث، اتفاق من الناحية الشكلية حول أمر واحد: إحياء العبرية كان حدث لمرة واحدة في تاريخ اللغات، ويوجد من يقول: معجزة حقيقية. كون الهيمنة اللغوية للعبرية الإسرائيلية مغايرة لتكويناتها السابقة، حقيقة معروفة منذ أكثر من خمسين عاماً. أعلن عن ذلك في سنوات الخمسينيات من القرن العشرين اللغوي حاييم روزن، وهو الذي أوجد مفهوم "عبرية إسرائيلية" أثار مقاله وكتابه عاصفة ليس فقط لأنه تجرأ على القول بأن هذه لغة حديثة بل وأيضاً لأنه عرض حججاً تقول بأن للغات الأوروبيية دور كبير في جذور العبرية الإسرائيلية. وبالفعل أجزاء كثيرة من قواعد اللغة ومن الحوافز المعنوية لتجديد وإغناء كلماتها مصدرها ليس فقط في مكونات العبرية بل وبدرجة كبيرة لغة الإيديش وبدرجة معينة بلغات أوروبية أخرى تحدث بها السكان اليهود في تلك الأيام (روسيا، بولندا، والمانيا) أو بلغة السلطة السياسية التي سيطرت على أرض إسرائيل (الإنجليزية) بعد الحرب العالمية الأولى.

يوجد للمسارات التاريخية وبصورة دائمة بُعد اجتماعي وتلعب هذه المسارات دوراً في نفس هذا البعد الاجتماعي.

ومن الواضح أن قضية إحياء العبرية تشكل حجر زاوية مركزيا في بناء الشعب. لكن مثلما توجد فوارق في الحوار الديني حول "خلق العالم" وبين الحوار الفضائي – الفيزيائي حول "نشأة الكون"، توجد أيضاً لدى اللغويين سبل مهنية للحديث حول نشأة اللغة، وفي مجموع المفردات اللغة مكان أيضاً لكلمة "إحياء". مثلما يدرك الجمهور الواسع الفوارق بين "خلق العالم" و "نشأة الكون"، ويستطيع الحديث عنهما دون فهم تفاصيل الجدال بين مؤيدي الإنفجار الكبير ومعارضيه، فمن الجدير تحويل الحوار اللغوي حول نشأة العبرية الإسرائيلية للجمهور حتى يستطيع الاطلاع على قضية إحياء اللغة بعيون انتقادية.

حتى لو لم نكن ندرك اليوم كيف بدأ الانسان بالحديث فإن الرأي السائد يؤكد على أن لغات أيامنا هذه، هي امتداد حديث للغات القديمة. وتوجد وبالتأكيد لغات بالإمكان المشاهدة فيها التطورات اللغوية عبر التاريخ. هذا هو الوضع، وعلى سبيل المثال في اليونانية الحديثة أو في اللغات الرومانية مثل الإيطالية والإسبانية والرومانية وما شابه.

يعرف اللغويون وبتأكيدات عالية جداً إعادة تركيب المسارات اللغوية التي اجتازتها هذه اللغات ليس فقط عبر التاريخ بل وأيضاً النمو التاريخي لديالكتيكات " أم اللغات الهندية – الأوروبية".

ربما يتضح من خلال هذه المعرفة للغات التي لها تاريخ طويل إحساس بأن اللغات الحديثة غير محصنة، لكن هذه ليست الحقيقة كاملة. صحيح أن اللغات الحديثة غير محصنة من أي شيء كان، لكنها وبالتأكيد محصورة، وبصورة عامة داخل استخدامات مواد لغوية قائمة. وبناءً على ذلك ما هو الفرق بين التطورات اللغوية وبين نشأة لغة حديثة؟ الفرق هو بحدة الأزمة التي إجتازتها اللغة عبر تاريخها، وعلى سبيل المثال الإنجليزية – القديمة إجتازت أزمة قاسية مع غزو النورمانديين لبريطانيا في القرن الـ ١١. لكن رغم التأثير الكبير للفرنسية التي كان يتحدثها الممثلون وتغلغلها لحوالي نصف ثروة الكلمات الإنجليزية، لم تتوقف الإنجليزية عن كونها لغة الطفولة، واستمرت في تلك الفترة بالحفاظ وبدرجة كبيرة على قواعد الإنجليزية القديمة. وفي حالات مشابهة أقل مأساوية يتحدث اللغويون عن حالات – اتصال بين اللغات.

لكننا شهدنا في القرون الأخيرة تطورات للغات في أوضاع مأساوية أكثر قسوة، وهذه لغات فيغين – كرياول.

تطورت معظم هذه اللغات نتيجة تجارة الرقيق خصوصاً بين القرنين ١٦–١٩. ترتكز الرواية الكلاسيكية لتطور هذه اللغات على إحضار العبيد من إفريقيا للعمل في حقول بالعالم الجديد. وبصورة عامة تم تجميع عدد كبير من أماكن مختلفة في أوروبا الغربية في

مزارع، وتحدث هؤلاء لغات مختلفة ولم يفهموا بعضهم البعض لكن معظم هذه اللغات كانت ذات بنى قواعدية متشابهة من نواحٍ كثيرة. ولأنه وجدت حاجة في أوساط السكان العبيد للاتصال مع بعضهم البعض ومع مدراء أعمالهم البيض الذين يتحدثون لغة كولونيالية (الإنجليزية، الإسبانية، البرتغالية، الفرنسية) نشأت لغات جديدة، شكلت مزيجاً من جميع هذه اللغات. جاء جزء كبير من ثروة الكلمات (وأحياناً جزء من الصيغ الصرفية) من اللغة الكولونيالية، ومن جهة ثانية جزء كبير جداً من الأسس القواعدية (خصوصاً علم الأصوات وعلم النطقيات والنحو) تأثر بعمق من الإرث المشترك للغات غرب أفريقيا.

يجري بصورة عامة الحديث عن مرحلتين في تطوير هذه اللغات. المرحلة الأولى هي مرحلة الفيغين، وجدت في هذه المرحلة لغة أقل تطوراً من اللغة الطبيعية، امتازت بالبساطة وبالتقليص النسبي للتركيبات، وتمتاز لغة فيغين أيضاً باختلافات داخلية كثيرة بسبب المصادر اللغوية الشخصية المختلفة لمتحدثيها. وتجدر الإشارة إلى أن هذه ليست هي لغة الأم لمتحدثيها، بل لغة تطورت واكتسبت بعمر كبير، أكبر بكثير من السن الذي يشكل فرصة لإكتساب لغة الأم وبالإمكان تشبيه المستويات المختلفة للمتحدثين بتلك التي تسود لدى الطلاب البالغين في صفوف معاهد تعلم العبرية الذين تعود أصولهم لبلدان مختلفة، يفهم كل منهم الآخر ويتصلون مع بعضهم البعض، لكن تراكيبهم اللغوية تكون مختلفة والعبرية بلسان متحدث الإسبانية ستكون مختلفة عن تلك بلسان متحدث الإنجليزية.

أما المرحلة الثانية، تتحدث بصورة عامة بعد ولادة الجيل الثاني لهؤلاء المتحدثين وهذه هي المرحلة الكرياولية.

هؤلاء الأولاد هم متحدثون أطفال لهذه اللغة، والأمر المثير للاهتمام هو أن هؤلاء الأولاد يسمعون فعلاً لغات متنوعة، وذلك لأن الأم والأب والمعلم وأصدقاء الأهالي يتحدث كل منهم بصورة مغايرة قليلاً عن الآخر، لكن وبصورة دائمة وفي جميع هذه اللغات يوجد لدى الجيل الثاني لغة موحدة أكثر تطوراً، أولاً جراء حقيقة كونها لغة الطفولة التي تفتح نافذة فرص لاكتساب وإغناء لغة طبيعية بمسارات تبسيطية لتعبيرات لغوية يجدون فيها تعبيرات الكلمة وثانياً، جراء مسار الوحدة الداخلية في مجموعة الأولاد.

إن ما وصفته أعلاه هو نوع من النموذج الرئيس يتضمن ومن الناحية العملية تباينات مختلفة وعلى سبيل المثال توجد لغات كرياولية برزت خلال تعاقب الدول الكولونيالية وهكذا توجد استثمارات لغتين كولونياليتين في نفس لغة فيغين. وتوجد حالات لم تتطور فيها لغة الفيغين كنتيجة لتجارة الرقيق بل نتيجة علاقات تجارية. وأحياناً تحدث مرحلة الكرياولية عندما لا يكون هؤلاء امتداد نسل، بل في حركة غير متوقفة لمتحدثين جدد داخل إطار اللغة. توجد خلافات حول جميع هذه القضايا بين اللغويين والمداولات حولها مستعرة ومثيرة للإهتمام، والإحتمالات كثيرة، أما المهم بنظرنا ليس المسارات الإجتماعية، بل المسارات اللغوية. في حالة الأزمة اللغوية المطلقة، وعندما لا توجد اتصالات بين الأشخاص وتتحول جميع اللغات القديمة إلى عديمة جدوى بالإتصالات يبرز من داخلها أسلوب اتصال جديد، العلاقة بينه وبين التركيبات السابقة أضعف من الإتصال العادي بين المراحل المختلفة لنفس اللغة. لا يجب الإستخفاف بلغات الفيغين، إذ تتضمن هي أيضاً الحصافة والقدرة اللغوية الأساسية فعلى كل إنسان يتحدث لغة أيا كانت، التمكن من إيجاد لغة اتصالات معقولة. لكن عندما تتم مرحلة المسارات (تحول اللغة إلى لغة– أم طبيعية لمجموعة أولاد) تتحول اللغة الكوريالية إلى لغة طبيعية بصورة كاملة، ينطق بها المتحدثون الأولاد.

معظم اللغات الكرياولية عمرها صغير لا يتعدى مئات السنين ويستطيع اللغويون وبتأكيدات عالية جداً إعادة تشكيل المسارات اللغوية التي اجتازتها هذه اللغات.

وجدت مؤخراً لغة جديدة فعلاً تحت الأنظار المتفحصة للغويين الحديثين، وأضاء هذا المسار العيون من نواح كثيرة. وهذه لغة إشارات جديدة تطورت في نيكاراغوا. وقبل كل ذلك من الجدير التأكيد بأن لغات الإشارات التي يتحدثها الصم والبكم هي لغات طبيعية ذات تركيبات لغوية مثيرة للإهتمام ومتطورة. إنها بالطبع تختلف عن اللغات المنطوقة وذلك لأن وسائلها (حركات اليدين وتعابير الوجه) مختلفة، لكنها لا تختلف عن اللغات المنطوقة من حيث استقرارها وتراكيبها وذكائها – وأيضاً بلغة الإشارات يوجد فرق كبير بين متحدث اكتسب اللغة في جيل متأخر، وعلى سبيل المثال أهل طفل أصم أبكم أجبروا على تعلم اللغة بسن كبير وبين متحدث لهذه اللغة منذ طفولته، أي ولد أصم لوالدين أصمين أو ولد وأدخل رياض أطفال صم بسن يعتبر اكتساب اللغة فيه كإكتساب لغة الأم.

أقيمت في نيكاراغوا في سنوات الثمانينيات المدرسة الأولى للأولاد الصم، وكان معظم الأولاد الصم قبل ذلك يبقون في منازلهم ويقيمون اتصالات بالحد الأدنى من الإشارات مع أهاليهم، بدون وجود علاقة لهم بأطفال صم آخرين. أدى تجميعهم في مدرسة

واحدة إلى وجود حالة اتصال مأساوية، إذ لم توجد بينهم لغة مشتركة ورغم عدم تعليم أحد لهم كيفية اتصال كل منهم بالآخر (تطلعت المدرسة لتطوير دراسة كلامية، أي قراءة الشفاه وتعلم الحديث بلغة منطوقة) طور الأولاد لغة إشارات جديدة. الأولاد الأوائل في هذه المدرسة الذين أصبحوا الآن بالغين وما زالوا يؤشرون بلغة الفيغين هذه، أما الأولاد الذين وصلوا بعدهم إلى المدرسة بسن صغير فقد وجدوا لغة بيغين قائمة وطوروا فيما بينهم لغة كرياولية متطورة. جرى كل هذا تحت أنظار اللغويين، وأدى إلى انفعالات شديدة، وبالطبع لروايات تفسيرية متشعبة وكالعادة خلافية، ليس هذا هو المكان للإسهاب بالحديث عنها.

عرضت جميع هذه القضايا من أجل إعطاء القارىء الذي عرف حتى اليوم فقط العلاقة الثقافية –السياسية بالرواية الصهيونية للغة ماتت وتم إحياؤها، فكرة عن العلاقة الجديدة غير الإحيائية. بالطبع العبرية الإسرائيلية ليست لغة فيغين – كرياول، لكن ثروة الكلمات التي تطورت في حضن هذه اللغات و الحوار اللغوي حول لغات فيغين – كرياول، يوفر لنا أدوات مناسبة للحديث عن نشأة العبرية الإسرائيلية بمفاهيم لغوية أقل عاطفية ومنفصلة عن أيديولوجية الإحيائية. لا يوجد في أوساط اللغويين حوار مماثل حول الإحياء. اللغات الميتة لا ناطقون منذ الولاد لها، وليس بالإمكان إحياؤها، وبالإمكان إيجاد لغة حديثة تكون مرتكزة بهذه الدرجة أو تلك على مواد اللغة الميتة، لكن لغة الأم التي ينطقها متحدث يعتقد بأنه يحيي اللغة القديمة تؤثر بدرجة عميقة على اللغة "المحيية".

لا ريب في أن العبرية مرت في مرحلة أزمة كبيرة عندما توقفت عن كونها لغة أما طوال ١٨٠٠ عاماً. ومن الواضح أيضاً بأنها وعندما عادت لتشكل لغة منطوقة إجتازت مرحلتين: مرحلة جيل الآباء، الذي كانت هذه بالنسبة له لغة مكتسبة وجيل الأبناء التي شكلت لهم لغة طبيعية. ومن الواضح أيضاً أن جيل الآباء تحدث اليديش ولغات أخرى من نفس النموذج اللغوي. سأسهب في القسم (ب) من المقال بالحديث عن هذه المسارات.

توجهات غير إحيائية لنشأة العبرية الإسرائيلية

لا نعرف كل شيء عن المراحل الأولية لنشأة العبرية، ونعرف بعض هذه الأمور لأسباب ثقافية – سياسية وذلك لعدم وجود أبحاث في هذه المجالات. وبناءً عليه سأعرض قضية نشأة العبرية قدر الإمكان ارتكازاً على معطيات متفق عليها لكن من غير المحظور في هذه المرحلة تحديد فرضيات في الاماكن التي لا تتوفر لنا معطيات حولها.

توقفت العبرية عن كونها لغة الطفولة قبل ١٨٠٠ عاماً، ولا ريب في أن هذا يشكل تجربة مأساوية للغة. لقد استمرت بالبقاء لغة كتابة عبر الأجيال وتحدث أشخاص أحياناً بها (على سبيل المثال يهود قرروا الحديث بالعبرية أيام السبت) أو لأنهم أجبروا على ذلك (في لقاءات يهود من مناطق مختلفة). ولكونهم مطلعين على العبرية كلغة ثقافة وكتابة، كان لبعضهم القدرة على استخدام هذه المعلومات بصورة عملية. ومن المرجح أن يكون طابع المواضيع التي تحدثوا حولها بهذه الصورة محدداً جداً، وأن القواعد التي تحدثوا بها لم تكن موحدة ولا ثابتة.

بدأت في بداية العهد الحديث كتابة آداب غنية بالعبرية، كانت أقل ارتباطاً بالقضايا والعلاقات الثقافية المحددة نسبياً للإتصالات اليهودية في القرون الوسطى، أي تجاوزت مجالات التوراة، والشريعة والسكان اليهود. ومن الجدير التأكيد على الدور العام للكتب التعليمية، لا سيما وأنها كانت نوعاً من إحياء اللغة (إحياء لغة مكتوبة). ومع ذلك من الجدير الإيضاح بأن الآداب الحديثة كتبت أيضاً في الأوساط الدينية غير المثقفة، وذلك وعلى سبيل المثال جراء الحاجة التي وجدت في أوساط الجمهور "الحسيدي" لكتاب يروي قصص "الحسيدين".

شكلت هذه قضية أدبية جديدة في الكتابة العبرية الدينية وتناولت كافة المجالات الحياتية. وهكذا بدأ نشوء توسيع ثروة الكلمات باتجاه الكلمات الضرورية في الإتصالات الحديثة وبدأت توجد أعراف الكتابة الحديثة.

في ضوء هذا الإتساع للعبرية المكتوبة عمل اليعازر بن يهودا في سنوات الثمانينيات من القرن الـ ١٩ على الدمج في كتاباته الصحافية بين الدعوة لإحياء القومية اليهودية وبين الدعوة لإحياء اللغة العبرية، ورغم الأصداء الجماهيرية الواسعة لهذه الدعوة فقد حققت نجاحات عملية جزئية جداً. كان هناك عدد ضئيل من الأطفال الذين تمت تربيتهم بالعبرية كلغة طفولة، وحتى عندما كان هذا يحدث لم يجد هؤلاء دائماً مجتمع أولاد يستطيعون في إطاره تطوير هذه اللغة كلغة طبيعية حقيقية. حالة ايتمار بن آب، مماثلة جداً لحالة طفل لأبوين عشقا الاسبرنتو، تعلما اللغة وهما كبيران وقرروا تربيته بالأسبرنتو. تعلما اللغة كلغة مكتسبة وليس كلغة أم

وكان ابنهما يتحدثها كلغة طفولة، لكن بدون أصدقاء أطفال يدعموه. ولهذا ربما تكون لغته طبيعية أكثر من والديه، لكنها ليست بمستوى لغة أم طبيعية يتحدث بها جمهور واسع.

كانت اللغة الأم لبن يهودا اليديش وتحدث الروسية بمستوى قريب من مستوى اللغة الأم. وعندما ولد ايتمار كانت أمه لا تعرف تقريباً العبرية، وكثير من أبناء جيله، مواليد نهاية القرن الـ ١٩ الذين ترعرعوا بالعبرية في أعقاب ايديولوجية الإحياء كانوا بوضع مماثل لوضعه.

فقط في مطلع القرن العشرين ومع وصول الهجرة الثانية التي أوجدت شبكات اجتماعية متشعبة تضمنت إقامة شبكات تعليمية واسعة، وبرامج تعليمية قطرية ومنظمات معلمين قطرية بدأت الظاهرة الحقيقية لتكوين العبرية الإسرائيلية. ولدت الهجرة الثانية من رحم حلم إحياء العبرية لدى بن يهودا واستجابت بكامل الجدية للمعضلة التي عرضها. لقد وضعت إحياء العبرية (في خضم خلافات داخلية غير بسيطة) على رأس سلم الأولويات الثقافية. كان جميع الآباء والمعلمين تقريباً يتحدثون اليديش كلغة طفولة (أو لغات أوروبية ذات أنماط مماثلة) تلقوا التربية العبرية المحافظة (غرفة مدرسة دينية وما شابه) وكان بعضهم ذوو معرفة غير قليلة بالعبرية. كان هذا من الناحية العملية الجيل الأخير الذي ما زال قادراً على القيام بهذا العمل، وذلك لأن التعليم إزداد في أوساط هذا الجيل كما ازدادت توجهات إرسال أبنائه إلى المدارس العامة في الدولة.

يكمن الفرق الإجتماعي الرئيسي بين متحدثي العبرية الأوائل وبين متحدثي لغة فيغين بكونهم لم يجبروا على الحديث بلغة أخرى، إذ كانت لديهم لغة مشتركة: اليديش. لكن كانت لديهم حوافز ايديولوجية ورؤية إحياء قويتين لدرجة اندلاع صراع عام حول لغة التعليم في مدارس إسرائيل، مع التأكيد على لغة التعليم في التخنيون، وانتهى هذا الصراع بانتصار العبرية في جميع الشبكة التعليمية، بدءاً من رياض الأطفال وانتهاءً بالتعليم العالي. كان يوجد عام ١٩١٤ أكثر من ٢٠،٠٠٠ متحدث طفولي بالعبرية الإسرائيلية وحوالي ٣٥،٠٠٠ شخص أعلنوا من خلال الإحصاء السكاني بأن العبرية لغتهم الأساسية، وفي نهاية المطاف اعترفت أيضاً السلطة البريطانية الجديدة عام ١٩٢٢ بالعبرية كإحدى لغات فلسطين، أرض إسرائيل. يدرك كل من يقرأ اليوم نصاً لأقوال من سنوات العشرينيات (على سبيل المثال رسالة شخصية)، أن هذه بجوهرها عبريته هو.

قد يكون مبالغاً به الحديث عن تحولات فيغينية وكرياولية حقيقية بالمعنى الحرفي لهذه النماذج، لكن لا ريب في أن التحولات اللغوية التي حدثت في تلك الفترة تضمنت المرحلتين النوعيتين في تطوير لغات فيغين وكرياول: الجيل الأول يتحدث لغة ليست لغة طفولته أقل غناً وأقل تطوراً، وينشأ بعد ذلك جيل من الناطقين منذ طفولتهم بلغة طبيعية وموحدة مكنت من تحقيق المسيرة. استمرت اليديش في أحيان كثيرة بالبقاء على لسان هؤلاء المهاجرين، وعلى لسان أبنائهم كلغة خاصة وعائلية لكن الضغوط الأيديولوجية نجحت بإيجاد أجواء فرضت استخدام العبرية كلغة الجمهور والتعليم.

شكل تجميع أطفال الهجرة الثانية في رياض أطفال ومدارس متحدثين بالعبرية العنصر الحاسم بنشأة العبرية الإسرائيلية. تحدث الأهالي والمدرسون عبرية ليست لغة أم وغير موحدة، ومن الناحية العملية فإن كثيرا من الآباء لم يتحدثوا العبرية بتاتاً، وبدأوا فقط بتعلمها من أبنائهم وعلى كل الأحوال فإن اللغة التي سمعها الأولاد تأثرت بعمق باليديش وبدرجة أقل بباقي اللغات الأوروبية. مجتمع الأولاد في كل رياض أطفال ومدرسة وفي الدوائر الأوسط بكل بلدة وفي نهاية المطاف في جميع اليشوف اليهودي في البلاد طوروا عبرية طفولة موحدة خلال جيل واحد. بدأت هذه المسيرة مع بداية الهجرة الثانية عام ١٩٠٤ وتلقت دفعة قوية في "حرب اللغات"، التي شكلت في السنوات ١٩٠٨-١٩١٤ ويكمن الفرق الكبير بالطبع بمستوى التعليم والمعرفة اللغوية للجيل الأول، الأمر الذي أدى إلى أن أجزاء من القواعد الكلاسيكسة التي تلقتها العبرية الإسرائيلية من العبرية الأصلية، كانت كاملة نسبياً، وعلى سبيل المثال تصريف الأفعال والأسماء والإضافة وما شابه. لكن جزءاً كبيراً من هذه التحولات تم باللغة التعليمية. وإذا كان بالإمكان الحديث بشيء ما حول الإحياء فإنه يكمن بتحويل لغة الكتابة القديمة هذه إلى لغة حديثة. لكن هذا الإحياء لم يكن بطولياً بدرجة كافية بنظر المسار الصهيوني. أكد زئيف بن حاييم المنشق عن حاييم روزن وعلى سبيل المثال بصورة جازمة أنه يوجد في العبرية صراع بين الصور اللغوية خلال المراحل التاريخية المختلفة للعبرية ("الأسس المنهارة") أما التطورات الحديثة بنظرة فهي محدودة وهامشية، لكن أثبت بحث روزن أنه توجد في العبرية الإسرائيلية تطورات حديثة كثيرة لا يمكن نسبها لاستعادة حياة اللغة القديمة. كانت هذه التطورات ناجمة أحياناً عن لغة الطفولة لجيل الآباء، اليديش، وكانت أحياناً مسارات لغوية طبيعية تحدث في كل لغة عادية وبدأت

يجب الحذر من التعميمية الثقافية – السياسية الجارفة والمبالغ بها. لا ريب في أن حقيقة استمرار الجدال واستمرار الإصرار على النظر لنشأة العبرية الإسرائيلية كظاهرة فريدة ولمرة واحدة، إحياء لغة ميتة، لها جذور عميقة بالأيديولوجية الصهيونية. لكن مثلما لا توجد أيديولوجية صهيونية واحدة، فإنه لا توجد علاقة مباشرة بين كون الإنسان صهيونياً وبكونه مؤمناً بإحياء اللغة.

تحدث في العبرية أيضاً.

وفيما يلي بعض النماذج: في مجال النطق، لا ريب في أن شبكة النطق القائمة بالعبرية الإسرائيلية مماثلة بصورة شبه تامة لليديش، وتختلف بصورة كبيرة عن التركيبة الكلاسيكية لعبرية التوراة والتوراة الشفوية. وفي الصرف فإن تطور الحرف (و) الذي عندما يصرف وحيداً ينطق (Ve) وتبقى الكلمة التي تليه كما هي عليه (على سبيل المثال "فبيت العبرية" = Ve–babayit بالمقارنة مع الصورة الكلاسيكية u–vabayit وهذا تطور داخلي للعبرية الإسرائيلية التي عمرها مثل عمر هذه اللغة ولا يوجد أي مجال لنسبها لأي مرحلة سابقة بالعبرية. وهكذا الأمر بخصوص باقي التصريفات المقروءة "الأحرف الشمسية": lebanim ؟ و levanim وهكذا وجد و للمرة الأولى تمييز بالعبرية الإسرائيلية بين b وبين v ولم يكن هذا مشروطاً بسبر أغوار التوراة، لأن كلمة "لئيم" بنطقيها ("بشفيل بنيم" و بغديم تحتونيم") كان من المفروض نطقها بالعبرية الكلاسيكية بنفس النمط، لكن في العبرية الإسرائيلية وجد تمييز جديد، وهكذا الأمر بالنسبة لـ "مفوسفس" ("عم باسيم" بالمقارنة مع "مفحمتس") "هشتبتس" ("شوفاتس بتفكيد") بالمقارنة مع "حطاف شيبتس" و "هتحبير" ("بتسار لعقسمو حيبور" بالمقارنة مع حبير" وما شابه.

تطورت تركيبة الفعل بالعبرية لثلاثة أزمنة الماضي – الحاضر – المستقبل، وذلك على العكس من العبرية التوراتية وبالتوافق مع عبرية التوراة الشفوية ومع المراحل المتأخرة أكثر مع العبرية المكتوبة التي تأثرت باليديش وباللغات الأوروبية. حدث هذا على العكس من الأدب العبري الذي كتب في أجواء التأثير الغربي، على سبيل المثال، الذي يوجد فيه زمنان فقط (الماضي ومقابله الحاضر والمستقبل). ارتكزت العبرية بطريقة الصياغة على ترتيب فاعل – فعل – فاعل في الجملة الفعلية العادية وذلك على العكس من العبرية التوراتية التي تبدأ الجملة فيها بالفعل. بالإمكان بالطبع الإدعاء بأن العبرية الإسرائيلية سارت في أعقاب العبرية المشنائية، التي تسير وفقاً لترتيب الكلمات العادي، لكن هذا هو بالضبط جوهر المسألة، إذ أن كثرة الأبعاد التاريخية داخل العبرية والقدرة على إيجاد مقارنة ومقابلة بين تأثير اليديش وبين صور أصلية في العبرية، هو الذي أوجد انطباعاً بأن هناك مسيرة إحياء. لكن ليس بالإمكان أيضاح الفسيفساء التي وجدت في العبرية الإسرائيلية من خلال مراحل العبرية نفسها، إذ أن المبدأ الذي يوضح هذه الفسيفساء خارج عن العبرية، ويوجد في اليديش. اختارت العبرية من مجالات الخيارات التي توفرت لها الخيار الأكثر تشابهاً مع لغة الأم غير العبرية للذين أحيوا اللغة.

تبلورت هذه المسارات في الجيل الأول لنشأة العبرية الإسرائيلية، ونشكل نحن الآن الإستمرارية الطبيعية لهذا الجيل. لا يجب أن يفاجأ من يشخص مسيرة تكون العبرية الإسرائيلية كمسيرة نشأة لغة جديدة من مواد لغات أخرى، من المتغيرات، ويستطيع بسهولة التوجه لوصف تلك اللغة، مثلما يعمل لغويون بخصوص لغات جديدة أخرى. لكن يوجد فرق واحد أساسي بين لغة الصم والبكم وبين اللغات الكرياولية. لا يوجد للغة الصم نموذج محاكاة مفضل ولا توجد لغة رائعة أخرى تعتبر أصح اجتماعياً، وبالمقارنة مع ذلك فإن اللغات الكرياولية ذات وضع مغاير. توجد لغات كرياولية (وبالتأكيد ليس جميعها) على اتصال وطيد وتستمر مع اللغة الكرياولية ومع استمرار هذا الإتصال تتولد ضغوط على اللغات الكرياولية للإقتراب من اللغة النموذجية، على سبيل المثال الإنجليزية، والتخلص من الظواهر الكرياولية. ويطلق على هذه المسيرة اسم ده – كرياولية.

لم توجد ضغوط على العبرية الإسرائيلية في بداية نشأتها، وهذا أمر بديهي، لأن الناس كانوا ما يزالون في خضم مسيرة "الإنتاج" واستقبلوا "أخطاء" المتحدثين الذين لم تكن هذه لغة طفولتهم، بتفهم.

بدأت لجنة اللغة فقط عام ١٩١١ بتصحيح اللغة. منذ لحظة ترسيخ

وما أنا معني فعلاً به في هذا العرض هو بأنه في الوقت الذي تستخدم فيه رواية الإحياء مفهوماً ميثولوجياً (إحياء) الذي لا يتضمن مسارات بالوصف اللغوي، فإن الرواية التي أعرضها رواية لغوية بسيطة ترتكز على مبادىء لغوية عالمية. توجد خصوصية بنشوء العبرية الإسرائيلية وتكمن هذه الخصوصية بإلتقاء لمرة واحدة لعناصر إجتماعية وثقافية ولغوية مكنت من هذه المسيرة، وهذا الإلتقاء لم يحدث وبهذه الدقة في لغات أخرى، لكن المسافة من هنا وحتى القول بأنه قسم إحياء العبرية القديمة، ما زالت بعيدة جداً.

نشأة اللغة وبدء تراكيبها الذاتية بالبروز من حيث انتشارها الكامل وانفراديتها الكبرى بدأت شبكة ضغوط الإيديولوجية اللغوية الإحصائية، التي رأت بأن الضرورة تستوجب تحقيق فكرة الإحياء بالمعنى الأوسع لمفهوم "إحياء"، أي تعريف نفس الظواهر اللغوية التي لم تكن لها صلة بالجذور، كأخطاء. وبدأ صراع على تصحيح "أخطاء" الناطقين بالعبرية الإسرائيلية.

لكن المكونات الكلاسيكية للعبرية، كل واحدة بحد ذاتها وخصوصاً العبرية التوراتية بعيدة جداً عن العبرية الإسرائيلية ولهذا استوجبت الضرورة من الناحية العملية تجديد العبرية الكلاسيكية بنسخة تبسيطية أقرب للعبرية الإسرائيلية، وذلك من أجل أن نشكل لغة نموذجية يتم تصحيح اللغة الخاطئة، بناءً عليها. وبالطبع لم تكن اللغة النموذجية المبتدعة واحدة، وذلك لأن أصحاب صلاحيات مختلفين عرضوا أعرافاً مختلفة. وجدت ورغم ذلك ومع مرور الزمن أعراف متفق عليها إجتازت مرحلة القانونية في لجنة اللغة وفي أكاديمية اللغة العبرية التي شكلت استمرارية لها. لقد تجند – جُند كل وكلاء الثقافة من أجل هذه المهمة، و قررت الدولة من أجل ذلك شرعية قانونية لإقامة الأكاديمية للغة العبرية وتأليف مناهج دراسية ترتكز على فكرة أن العبرية الإسرائيلية هي استمرارية للعبرية القديمة. كيف تعلمنا جملة المفرد بالعبرية، ليس من خلال نماذج قبل "همسهداه هزوت، أني مكفيه ستحزيك معماد" (المطعم هذا آمل صموده)، بل من خلال الجملة "يروشاليم هاريم سبيب له" (القدس جبال حولها)، "كايتس فحورف أتا يتسرتم" (صيف وشتاء أنت خلقتها)، وما شابه ذلك من المصادر.

وبالمناسبة من الجدير عدم الفهم من أقوالي بأنني أوجه إنتقادات لفكرة أن لغة الثقافة تختلف عن لغة النطق الطفولية. هذا وضع طبيعي في كثير من اللغات، وله مصداقية، ويمكن من تطور وإغناء مصادر النصوص التي تشكل ثروة كبيرة ثقافية في المجتمع، ويمكن من تطور تعابير عميقة وأكثر تنوعاً من تلك المتوفرة للناطق بلغة الطفولة، كما توفر شبكة ترابط لمراحل سابقة باللغة. لكن جراء عدم وجود لغة نموذجية حقيقية للغة العبرية (مثل الإنجليزية بالمقارنة مع اللغات الكرياولية المرتكزة عليها)، فإن إبداع اللغة الثقافية الإسرائيلية، يجب أن يكون مفتوحاً لمداولات ديمقراطية لا أن يكون خاضعاً لإملاءات مؤسسات القيادة بصورة محافظة جداً، وفي إطار أيديولوجية ثقافية – سياسية متسلطة.

يجب الحذر من التعميمية الثقافية – السياسية الجارفة والمبالغ بها. لا ريب في أن حقيقة استمرار الجدال واستمرار الإصرار على النظر لنشأة العبريةالإسرائيلية كظاهرة فريدة ولمرة واحدة، إحياء لغة ميتة، لها جذور عميقة بالأيديولوجية الصهيونية. لكن مثلما لا توجد أيديولوجية صهيونية واحدة، فإنه لا توجد علاقة مباشرة بين كون الإنسان صهيونياً وبكونه مؤمناً بإحياء اللغة. كان حاييم روزن الذي أعلن عن العبرية الإسرائيلية كلغة حديثة جديرة بالبحث، عضواً في "مباي" ومؤمناً بمبادئه، وبالتأكيد لم يكن مناهضاً للصهيونية ومع ذلك فقد قاده ضميره اللغوي للإعتراف بوجود لغة جديدة. سأبحث في الجزء (ج) من المقال بإسهاب مسألة الترابط بين الحوار اللغوي حول إحياء العبرية وبين الحوار السياسي في إسرائيل.

الإرتباطات السياسية للجدال حول إحياء العبرية

سأستخدم في المداولات التالية كلمة "أسطورة" وأود الإيضاح مسبقاً بأن الهدف من استخدام هذه الكلمة هو الإشارة إلى أجزاء مقدسة في المسار الأيديولوجي ولا أستخدم هذه الكلمة كحكم على حقيقة الأسطورة. وأعني بهذا بأنني لا أفترض وجود أساطير للصهيونية وبأن لدي الرواية الحقيقية، وأنا متيقظ لكون المسار الذي أعرضه هذا هو أيضاً لا يتجاوز كونه رواية متوافقة مع قناعاتي الثقافية – السياسية، بنفس مستوى توافق رواية الإحياء

تشكل أسطورة إحياء العبرية جزءاً من نفس الأساس الأيديولوجي العاطفي الذي تطورت حوله قصص بطولية وأغان شعبية والذي ما زال مستمراً بالسيطرة على الواقع السياسي الذي ابتعد مسافة طويلة عن المواقف الصهيونية المحافظة التي تثقفوا عليها.

مع المسار الصهيوني ولا أتبنى هنا موقف رجل الحقيقة. وما أنا معني فعلاً به في هذا العرض هو بأنه في الوقت الذي تستخدم فيه رواية الإحياء مفهوماً ميثولوجياً (إحياء) الذي لا يتضمن مسارات بالوصف اللغوي، فإن الرواية التي أعرضها رواية لغوية بسيطة ترتكز على مبادىء لغوية عالمية. توجد خصوصية بنشوء العبرية الإسرائيلية وتكمن هذه الخصوصية بإلتقاء لمرة واحدة لعناصر إجتماعية وثقافية ولغوية مكنت من هذه المسيرة، وهذا الإلتقاء لم يحدث وبهذه الدقة في لغات أخرى، لكن المسافة من هنا وحتى القول بأنه قسم إحياء العبرية القديمة، ما زالت بعيدة جداً.

تطورت داخل الجامعة العبرية خلال سنوات الـ ٣٠ والـ ٤٠ من القرن الـ ٢٠ توجهات وصفت بـ "مدرسة القدس" ونادت هذه المدرسة بوحدانية الحالة اليهودية – الإسرائيلية وطورت الفرضية القائلة بأن الحالة اليهودية – الإسرائيلية ليست مجالاً بل مدرسة، أي أن تاريخ شعب إسرائيل ليس حالة خاصة (مجال) داخل التاريخ البشري، بل شيء ما خاص يتطلب أدوات نظرية تختلف عن المسارات التاريخية العادية (مدرسة). وهكذا اعتبرت الصهيونية فعلاً كحركة وطنية، لكن خاصة، وأن التجمع السكاني الذي وجد في أرض إسرائيل هو فعلاً تجمع مهاجرين، لكنه خاص (ولهذا تتحدث عن عائدين جدد وليس عن مهاجرين)، واللاسامية هي فعلاً حركة عنصرية، لكن سبل تحليلها خاصة، الكارثة هي فعلاً حالة إبادة شعب، لكنها غير قابلة للوصف بمفاهيم علمية عادية. وهكذا وجدت مدرسة علمية كاملة في التاريخ، وعلم الإجتماع والآداب والعلوم السياسية وباقي أقسام العلوم اليهودية التي ارتكزت على مبدأ الخصوصية. عرض المؤرخون وعلماء الإجتماع الجدد والذين نشأوا منذ سنوات الـ ٧٠ مناهج بحث جديدة أكدت بأن هذه ليست مدارس بل مجالات داخل المدارس العالمية.

ترتكز مزاعم أن مسيرة إحياء العبرية، خاصة، على إقتراحات داخل المدرسة المقدسية، التي عملت وبصورة عامة على تطوير أكاديمية مجندة لمشروع الإحياء الوطني.

تقوم كثير من الأساطير الصهيونية التي ظلت قائمة حتى اليوم، على فرضيات أساسية تعبر عن المواقف الأكثر محافظة في داخل مجمل الآراء الصهيونية، وتوجد اليوم مساحة كبيرة جداً من المواقف الصهيونية المتقدمة، ولا يوجد أي سبب يدعو إلى التنصل من جميع الذين يتبنونها بصورة جارفة، ولهذا فإنني لا أستخدم المفهوم الجارف "مواقف صهيونية" بل "مواقف (صهيونية) محافظة" أو "تقليدية"، في إطار تناول الأسطورة الصهيونية بصورتها الأصلية. تملي هذه الأسطورة أحياناً ومن أعماق اللاوعي مواقف أو توجهات تتناقض مع مواقف متعددة لنفس الأشخاص. الصهيونية المتجددة المعارضة للإحتلال والمؤيدة لتحويل إسرائيل لدولة مدنية، قائمة فعلاً، لكن لا يوجد لها إرث شعبي مثل ذاك الموجود للصهيونية المحافظة، توجد لها مواقف وآراء، لكن لا قصائد شائعة ولا أغاني شعبية ولا نشيد وطني ولا أعلام، ولا احتفالات ولا كيان أدبي. ولهذا وفي أحيان متقاربة فإن هؤلاء الأشخاص الذين يتبنون مواقف متقدمة يجبرون (وحتى يستعبدون) عاطفياً للتقاليد التي ترعرعوا عليها. وهكذا وعلى سبيل المثال فإن جميع زعماء الأحزاب الصهيونية المؤيدة لإخلاء المستوطنات يشعرون بأنهم ملزمون بالإعراب عن الهم العميق جراء التنازل عن أجزاء من أرض إسرائيل، أي أنهم مازالوا يعبرون بأمانة عن التوجهات التقليدية القائلة بأن جميع أرض إسرائيل تابعة تاريخياً للشعب اليهودي الذي إسرائيل دولته.

تشكل أسطورة إحياء العبرية جزءاً من نفس الأساس الأيديولوجي العاطفي الذي تطورت حوله قصص بطولية وأغان شعبية والذي ما زال مستمراً بالسيطرة على الواقع السياسي الذي ابتعد مسافة طويلة عن المواقف الصهيونية المحافظة التي تثقفوا عليها.

هكذا فقط بالإمكان إيضاح مقال يوسي ساريد "إلى أنصار لغة الماضي" ("هآرتس" ٢٠٠٤/٦/٢١) الذي أعرب فيه عن معارضته الإصلاحات بالتنقيط والتكوين وأعرب من خلال ذلك عن تدهور العبرية ولم يميز بين لغة الطفولة للمتحدث وبين لغة ثقافته (وقال أموراً مماثلة أيضاً بيوم اللغة العبرية في الكنيست بتاريخ ٢٠٠٥/١/٤).

" وفقاً لهذا المنطق لا يوجد أي سبب لعدم الخنوع لتشويشات واسعة أخرى أصبحت متجذرة ولن يكون بعيداً اليوم الذي سيقترح فيه شخص ما الموافقة على عبارة (عسر شيكل)" أو الإستخدام السيء والمثير للأشياء لضمير الغائب في المستقبل لذكر ضمير المتكلم (أني يغيد) و (أني يحزور) وما شابه ذلك من إبداعات اللغة التي تثير القشعريرة. يوجد في هذا التردي المستمر إلى الدرك الأسفل تعال أكثر منه اهتماماً وكأنهم بأسوا من قدرة معظم متحدثي اللغة العبرية على إيجاد نطق وكتابة صحيحين ومعدلين.

"استهدفت الفيدغين – في ليلة لغوية مترددية – هي أيضاً بأصولها التسهيل على المتعلمين والمستخدمين، وحددت في عدة دول كلغة مسيطرة، وذلك لسد احتياجات الإتصالات المريحة بين الجهلة وتطالب الآن بالحصول على مكانة لغة بكل ما يحمله هذا من معنى. وهكذا يمكن أن يذهب سدى ما اعتبر عنواناً رائعاً للمشروع الصهيوني: إحياء اللغة العبرية بعد أن ماتت".

تطورت في الولايات المتحدة اليوم توجهات إيجابية حيال طابع الحديث في الأحياء السوداء في المدن الكبرى، حيث توجد هناك أيضاً ظواهر تصم آذان المتحدث المرهف المشاعر من أبناء الطبقتين المتوسطة والعليا، بالضبط مثل النماذج التي عرضها ساريد وعلى سبيل المثال فقدان حرف S بأفعال الغائب المفرد. لكن جراء الإدراك الواعي والمتحرر من الأساطير حول "الإنجليزية الصحيحة" يترسخ هناك الإعتراف بأن التعليم الصحيح لا يرتبط بإهانة اللغة الأم لمتحدثي الإنجليزية غير – الأصلية، بل من خلال الإدراك بأن التعليم الذي يريد الإندماج في المستقبل بالمجتمع ويتحرك مع تحرك المجتمع يجب اكتسابه إضافة للغة الأم (التي هي بحد ذاتها لغة محترمة جداً) إضافة لاكتساب كفاءات الحديث والكتابة بلغة أصلية.

الإهانة الإستشراقية التي وجهها ساريد للعبرية الإسرائيلية الطفولية والتي سمعت من خلال الحديث عن أبناء الطبقات الإجتماعية – الإقتصادية الفقيرة، والتي لم ترتفع لمستوى اللغة الثقافية ووصف اللغة هذه بـ "الدرجة السفلى" والحنين للماضي الذي أعرب عنه حيال "روعة" الـ "إحيائية اللغة العبرية الميتة"، إضافة إلى الجهل بقضية لغات الفيغين (واستخدامها ككلمة استنكار) كل هذا يعبر عن سوء فهم وعدم معرفة مسار لغة أحد مصادرها هو التربية الصهيونية التي تلقاها ساريد في الشبكة التعليمية الإسرائيلية والتي ما زال يتمسك بالقطب الأكثر محافظة بأيديولوجيتها. لا يجب لومه لأنه لم يوفر له أحد الوسائل الإنتقادية من أجل إمعان التفكير بهذه الظواهر من زاوية نظر أخرى، ولا حاجة لساريد بأن يتوقف عن كونه صهيونياً من أجل الإعتراف بهذه المسارات.

ويستطيع بالتأكيد البقاء في زمرة صهيونية جيدة حتى إذا توقف عن الحداد على موت أسطورة أخرى، وعلى الأقل فإن السعة الثقافية لصهيونيته سيكون أكثر ملاءمة لآرائه السياسية. التأكيد اللغوي بإن إحياء العبرية لم ينته بعد (ولهذا لا توجد لها حتى الآن هيئة لغوية دائمة، وليس بالإمكان إعطاؤها وصفاً مستقراً، وكل ما يتجاوز اللغة النموذجية هو بمثابة (أخطاء) هو تأكيد متطرف إلى أقصى المستويات، موازيه السياسي هو التأكيد بأن الصهيونية لم تنته بعد ومازال لها دور سياسي لأيديولوجية بناء شعب عرقي في دولة سيادية توصف كتابعة لها وتخدمها ويجب الإستمرار بمسيرة إحتلال البلاد لحين تحقيق الحد الأقصى من المخطط الصهيوني.

لا يعتبر حل أسطورة الإحياء، في داخل الأوساط المقلصة العاملة باللغة، مشروعاً سياسياً.

يدرك من يعمل في قواعد اللغة العبرية الإسرائيلية ويشعر بوضوح بأنه يوجد لهذه اللغة تركيبة لغوية مستقرة وجديرة بالوصف. ووصف كل من عمل بهذه الشؤون في سنوات الـ ٣٠ و الـ ٤٠ من القرن الـ ٢٠ هذه الظواهر بـ "لغة الطفولة" أو "الأخطاء"، لكن مرت تلك الأيام.

وأفترض أن بالإمكان العثور، بين باحثي العبرية الإسرائيلية، على مواقف سياسية متنوعة جداً، لكن إذا كان هذا الأمر ينطبق على الباحثين أنفسهم، فإن الأمر مختلف بكل ما يتعلق بالمؤسسة الرسمية والأكاديمية العاملة بالعبرية. وما زال هذا مرتبط بأيديولوجية الإحياء ويترك هذا نتائج قاسية على البحث (وعلى سبيل المثال عدد الباحثين بكل قسم للغة العبرية الذين يصنفون كباحثين في العبرية الإسرائيلية واتجاهات عملهم البحثي) وعلى الشبكة التعليمية (مناهج تعليم اللغة في المدارس). إن دعوتي لتبسيط رواج أسطورة الإحياء موجهة وبدرجة كبيرة إلى تلك المؤسسات، وإضافة لذلك وكما قلت سابقاً، إلى الجمهور الواسع المحب للعبرية الذي اعتاد حتى اليوم على رفع مستوى محبته للعبرية إلى مستويات رثاء مفقود. لدينا لغة حية رائعة من الجدير الإستمتاع بها والترحيب بتلونها، دون مشاعر تخلف أتى بها ناطقون لم يكن بإمكانهم "تعويد أنفسهم على الحديث والكتابة الصحيحين والمعدلين"، ومع ذلك من الجدير أن يكون لنا إختيار مشروع وأن يكون لدينا تقييم معقول بخصوص قرار متى نستخدم لغة طفولية حميمة أكثر ومتى نستخدم لغة ثقافية

إمتنع بلاو طوال سنوات عمله بروفسوراً في الجامعة ورئيساً لأكاديمية اللغة العبرية عن الإعراب عن مواقفه السياسية وربما استوجب هذا مني إجراء تخمين سياسي غير مرتكز على حقائق لولا أنه كشف هذا العام وللمرة الأولى (إذا لم أكن مخطأً) عن وجهه السياسي: لقد وقّع على عريضة تصف إقتلاع مستوطنات بجريمة وطنية وبجريمة ضد الإنسانية. يعتقد بلاو، مثل كثيرين من زملائه بأنه لا توجد أي علاقة بين مواقفه اللغوية ومواقفه السياسية. ومن الناحية العملية فإن الجدال الإنفعالي الذي أثير في أعقاب نشر كتابي، يشكل بحد ذاته فصلاً آخر في كتابي، لأن هذا بالضبط فحواه: نقاط الإلتقاء بين الحوار اللغوي والحوار السياسي في إسرائيل.

دون الإحساس بأن الأولى تستبعد جراء بغضها.

لا أزعم بأن الوصف الذي عرضته هنا لمسارات نشؤ العبرية الإسرائيلية هو الوصف الوحيد الممكن، عرض قضية التشابه مع لغتي فيغن وكرياول، للمرة الأولى شلومو يزرعيل، اللغوي في جامعة تل أبيب، وقد تختلف تفاصيل روايتي وروايته قليلاً، لكن هذا لا يؤدي إلى تغيير حقيقة أن كلينا حاول عرض إيضاحات لظاهرة لغوية مثيرة بمفاهيم لغوية عامة، وليس بمفاهيم ميثولوجية. بدأ مؤخراً اللغوي جلعاد تسوكرمان بدعم إطار مهم آخر، يؤكد أن العبرية الإسرائيلية هي لغة مهجنة ذات أبوين: العبرية الكلاسيكية واليديش. اما الجدال حول المفهوم وحول الإطار النظري المناسب وحول تفاصيل التفاصيل للمسيرات فيشكل جزءاً من مضامين بحث غير – إحيائي لتاريخ العبرية الإسرائيلية وهذا الجدال مشروع قبل كل الخلافات العملية.

لكن برامج الأبحاث لا يمكن أن تظل نظرية، ويجب أن ترتكز على نتائج لغوية، وعلى سبيل المثال لم يكتب حتى اليوم بحث شامل حول القربى البنيوية بين العبرية الإسرائيلية وبين اليديش وهل هذا محض صدفة؟ لم تُجمع حتى اليوم المذكرات والرسائل الشخصية وبرتوكولات اجتماعات المؤسسات المختلفة الموجودة (آمل أن تكون ما زالت هناك) في أرشيف القرى التعاونية والكيبوتسات الأولى. ولا أتحدث هنا عن إصدارات محررة، بل وعلى وجه التحديد عن مواد خام غير محررة، بما في ذلك المشطوب والمضاف والمصحح، الأمر الذي يمكن أن يوفر لنا شهادات غير مباشرة (غير مباشرة لأنها مكتوبة وغير منطوقة) حول لغة الذين أحيوا اللغة، الذين وفروا الإستيعاب اللغوي الذي على أساسه طور جيل الأولاد لغتنا الطبيعية. ولا ريب في أن الأيديولوجية الإحيائية أوجدت معيقات أمام هذا النوع من الأبحاث.

ربما يتساءل القراء الذين ليسوا على دراية بالمشاعر التي رافقت هذا الجدال: لماذا هذه الضجة؟ لربما يكون كل ما أقوله غير صحيح، وإذا كانت هذه هي حقيقة الوضع فبالإمكان تفنيد الأمور، لكن الردود على كتابة لغوية غير إحيائية ستكون انفعالية بدرجة حادة لأنه من الواضح بأنه لم تمس فقط عزة النفس اللغوية لهم بل وأيضاً قناعاتهم الثقافية – السياسية.

توج يهوشاع بلاو البروفسور السابق ورئيس أكاديمية اللغة العبرية سابقاً كتابي الصادر عام ٢٠٠١

Zionism: A Discourse Analytic Hebrew and Cultural Study

الذي يتناول نقاط الإلتقاء بين الحوار اللغوي والحوار الثقافي– السياسي بصفة "كراس"، كلمة تحقير من المفروض أن تشير إلى ميولي السياسية وإلى ضحالة كتابي وهذا ما يقوله في "لغتنا": "يبني كوزار إطاراً بناءً على آرائه المسبقة ويحاول حشر بعض الحقائق داخل هذا الإطار.

إحياء اللغة العبرية كحدث غير عادي قائم، بنظره ويقترح بلاو بعد ذلك إيضاحاً نفسياً لشذوذي: "يبدو تقريباً أن كلمتي –Prescrip tion و Revival تثير [لديه] مشكلة (Phopia)". أما "النزل" الذي نشرت هذه الأقوال فيه فهو "لغتنا"، المجلة الرسمية لأكاديمية اللغة العبرية.

إمتنع بلاو طوال سنوات عمله بروفسوراً في الجامعة ورئيساً لأكاديمية اللغة العبرية عن الإعراب عن مواقفه السياسية وربما

استوجب هذا مني إجراء تخمين سياسي غير مرتكز على حقائق لولا أنه كشف هذا العام وللمرة الأولى (إذا لم أكن مخطأً) عن وجهه السياسي: لقد وقّع على عريضة تصف إقتلاع مستوطنات بجريمة وطنية وبجريمة ضد الإنسانية. يعتقد بلاو، مثل كثيرين من زملائه بأنه لا توجد أي علاقة بين مواقفه اللغوية ومواقفه السياسية. ومن الناحية العملية فإن الجدال الإنفعالي الذي أثير في أعقاب نشر كتابي، يشكل بحد ذاته فصلاً آخر في كتابي، لأن هذا بالضبط فحواه: نقاط الإلتقاء بين الحوار اللغوي والحوار السياسي في إسرائيل.

يخصص الكاتب نتان أفراتي، في كتاب آخر صدر مؤخراً الصفحات الثلاث الأخيرة من كتابه لشن هجوم علىّ وعلى كتابي وآرائي حول إحياء العبرية. وإضافة للتشويهات الخطيرة لأقوالي التي تكشف عن صعوبة فهمه للقراءة يعرض هناك مزاعم سخيفة مثل: "فقط مؤلف مكتوب بالإنجليزية يستهدف جمهوراً على غير دراية بما يحدث في المجال الأكاديمي في البلاد، جمهور يغذي آراءه (الباحثون بوست – صهاينة) يمكن أن يتخم قُرّاءة". وإذا كان هناك ضرورة للإضافة فبالإمكان القول أن أفراتي هو مدير عام الأكاديمية اللغوية العبرية وأن أكاديمية اللغة هي التي نشرت كتابه؟ لم تنته قائمة الردود الإنفعالية عند هذا الحد، لكنني لن استمر بعرضها.

في سنوات الـ ٥٠ وعندما أعلن حاييم روزن عن إعتبار العبرية الإسرائيلية لغة حديثة ذات بنية لغوية جديرة بالبحث، كتب شلومو تسيمح المربي والباحث الثقافي الميثولوجي ابن جيل بن غوريون: "لكن هذه المسيرة [تبلور العبرية الحية بصورة عامة إلى لغة متبلورة] تتطلب تواضعاً وبقاءً وشموخاً وعيناً بصيرة ويدا سخية وقلبا محبا وموقفاً يبجل عزة الماضي وبهائه، وإذا توفر لها ذلك فمن المؤكد وصول هذه المسيرة في وقت من الأوقات إلى أهدافها". أي لا تمسوا العبرية، أو كما نص عنوان مقاله "إرفعوا أياديكم!". ما زالت اللغة في بداية الإحياء، ويضيف: "وها هو روزن يُدخِل إلى هذه السلطة قصر نفس وذعر وغريزة الشر والغرور والإستخفاف والمواقف الوقحة حيال إرث الأجيال، ولا يحاول تقييم ذاته ولا التساؤل – من الذي عيننني؟ ومن أين الصلاحيات ومن أين الغطرسة التي تدفعه لحسم أمور لا تخصه؟ ويكمن فساده الأكبر بكل ذلك".

عارض تسيمح رجل حركة العمل صديق طفولته بن غوريون، عندما عمل هذا على بلورة الأيديولوجيات الرسمية في دولة إسرائيل. أراد تسمح الحفاظ على أيديولوجيات الهجرة الأولى والثانية أيضاً داخل دولة إسرائيل، وهكذا قاد توجهات محافظة نسبياً بالمقارنة مع الخط الرسمي لبن غوريون، ولهذا لم تكن غريبة معارضة تسمح للإعتراف بالعبرية الإسرائيلية كفشل ذاتي. مر منذ ذاك الحين خمسون عاماً وما زلنا وبدرجة كبيرة نراوح في مكاننا.

وفي الختام: توجد أهمية كبيرة لتحليل انتقادي للفرضيات الأساسية وللتوجهات الثقافية الصهيونية، ليس فقط بالمجالات السياسية والإجتماعية المفهومة، بل وأيضاً بالمجالات الثقافية والأكاديمية التي قد يبدو تأثيرها هامشيا. وفرت الأيديولوجية الصهيونية وخصوصاً بصيغتها المحافظة، لتلاميذها، وبمساعدة الشبكة التعليمية التي إجتازها معظمنا مشاعر رحبة، بدءاً من انفعالات معجزة الإحياء وانتهاء بالإرتقاء الناجم عن مغزى العبرية الطفولية، وهذه غرائز شبه طبيعية، إنها جهاز تعذيب (تكبل فيه الأيدي والأرجل) يقود إلى إعاقة فكرية لرجال التعليم والأكاديميين العاملين في مجال اللغة، وإلى إعاقة أكبر لأشخاص عاديين ليست مهمتهم البحث باللغة. إن التحرر من آلة التعذيب هذه سيكون مجدياً سواء من البعد الثقافي – السياسي من خلال إعادة تكوين الأسطورة الصهيونية التقليدية، وتطوير تفكير ديمقراطي عالمي (صهيوني ولا – صهيوني) أو من حيث البعد التعليمي – الأكاديمي، من خلال تطوير مناهج تعليمية ومناهج بحثية تعترف بالعبرية الإسرائيلية الطفولية وتخصص مصادر مالية وإنسانية للتعليم والبحث، وذلك إضافة إلى التكوين الديمقراطي للغة الثقافة العبرية الإسرائيلية واكتسابها.